يوم الجلاء ذكرى خالدة في وجدان سورية والسوريين

ما كنتم غير حلم في نواظرنا أدمى النواظر حيناً وانجلى حينا

يوسف العظمة

الشيخ صالح العلي

سلطان باشا الأطرش

إبراهيم هنانو

| إسماعيل مروة

نهض السوريون في ذلك اليوم ومن اللحظة الأولى لوصول طلائع المحتل الفرنسي إلى سورية، فابتدأت الثورة في الساحل السوري قبل أن يكون لغورو أي وجود في سورية، من الشمال إلى الجنوب امتدت الثورة، ومن بيروت إلى دمشق خط واصل رسم تاريخ سورية ولبنان حين حط غورو وصارت إنذاراته تتوالى، فقد أعدّ العدّة لاحتلال سورية، وكل ما كان من إنذارات لتمهد السبيل للاحتلال بمسوغات ومن دون مسوغات، وفي دمشق تضاربت الآراء بين قبول ورفض، ويومها ولد أول ما يمكن أن يكون شرارة للاستقلال الذي سيأتي بعد ربع قرن من الكفاح، ولدت جذوة المقاومة وكان يوسف العظمة هو من بدأها.

الوزير والمقاوم للمحتل

وزير الحربية يوسف العظمة رفض مع عدد من أصحابه الإنذار بنبوده، وقرر مقارعة المستعمر ومواجهته حتى لا يدخل سورية ودمشق بلا مقاومة، وكانت ملحمة ميسلون التي لا خلاف على رمزيتها وأهميتها نقطة أولى في مسيرة الجلاء، ومع ما قيل فيها من إقدام يوسف وصحبه وبطولتهم أو مغامرتهم غير المحسوبة برأي الكثيرين فإن ما قاموا به كان عملاً بطولياً لسورية كلها، ولذلك نهض شاعر الشام خليل مردم بك، شاعر النشيد السوري فيما بعد ليقول في خطبة أصدق ما يمكن أن يعبر.

أيوسف والضحايا اليوم كثر
ليهنك كنت أول من بداها
عرفنا يوم يوسف مبتداها
فهل من مخبر عن منتهاها

والشاعر المهندس المصري علي محمود طه قال فيه أروع الشعر:

في موكب الغادين مجد أمية
بجوانح مشبوبة وجوارح
يا يوسف العظمات غرسك لم يضع
وجناه أخذ من نتاج قرائح
قم لحظة وانظر دمشق وقل لها
عاد الكمي مع النفير الصادح
ودعاك يا بنت العروبة فانهضي
وبأعظم يا بنت العروبة كافحي

لقد كانت ميسلون اللحظة الأولى في مقارعة المستعمر الفرنسي، ليس كما صورها الشعراء والأدباء وحدهم، بل كما كانت في وجدان الناس كما سجل ساطع الحصري وشهد فارس الخوري، وكانوا مع يوسف العظمة، وبشاطرونه الرأي في مواجهة غورو، وكذلك بقيت ميسلون وما تزال في وجدان الإنسان السوري الذي ارتبطت هذه الذكرى عنده بالثورة والجلاء، وبراعة القروي، وبساطة الثوار جعلتاه معاً يستفيد من اللغة والمسميات ليصنع مفارقة طريفة للغاية، فأخذ اسم (الأطرش) من سلطان باشا ليصنع صورة فريدة من الشعر والدلالة والعمق (فيا لك أطرشا) (كان أسمعنا جميعا) فهذا الذي يحمل اسم الأطرش هو وحده القادر على السماع، وهو أكثر الناس سماعاً، ويطلب منه الشاعر أن يستمر في الثورة، وكان ذلك.

يوم الجلاء والفرحة

يوم الجلاء هو الدنيا وزهوتها كما وصفه الشاعر، وهو النقطة الفاصلة في حياة الشعوب، والإنسان السوري في ذلك اليوم عبر عن مشاعره بشكل عفوي، وربما اكتسب الجلاء عن سورية ولبنان صفات عليا، لأن هذين البلدين هما أول بلدين جلا عنهما الاستعمار الغربي في منطقتنا، وذلك بعد أن ذاقا الويلات والدمار والعدوان، والسوريون يتذكرون، وكتب التاريخ تذكر مجازر الفرنسيين ضد السوريين، من العدوان على الأمنيّ والبلدات، إلى اقتحام المدن، إلى العدوان على دمشق القديمة وأحيائها، إلى العدوان على أعلى هيئة تشريعية في سورية هي البرلمان السوري، وما عرف بالمجزرة التي ارتكبت بحقّ رجال الدرك فيه وحامية البرلمان، وقد شهد القلة ممن بقوا على قيد الحياة بهذه المجازر، لكن ذلك لم يوقف السوريين عن المناداة بالتحرير وجلاء المستعمر، سواء كان ذلك في الثورة ودفع الأثمان الغالية من أرواح أبناء سورية، أم في المجال السياسي والمحافل الدولية من مؤتمرات عقدت في بلدان عدة، إلى جلسات أممية في مجلس الأمن، واستطاع السوريون الحصول على استقلالهم وحريتهم، والاحتفال باستقلالهم، الذي اكتسب قيمة كبرى، فمنذ دخول الأتراك إلى الأرض العربية غدت الأرض محتلة، ومع خروجهم في الثورة العربية الكبرى دخل الفرنسيون فلم ينزل العرب طعم الحرية والاستقلال حتى كان فجر السابع عشر من نيسان في سورية ولبنان.

أصداء الجلاء في الشعر

قد يحتاج جمع الأشعار التي قيلت في الجلاء إلى مجلدات، وقد جمع الباحثون هذه الأشعار ولكن الذكرى تحتم الوقوف عند بعض هذه الأصداء، والجلاء عن سورية طرب له شعراء العرب عامة، ولم يتوقف الأمر عند مبدعي سورية، ففي مصر هبّ الشعراء، وهم يعرفون مكانة دمشق وسورية، ويقدرون تضحياتها، فالشاعر علي محمود طه الذي مجّد يوسف العظمة يقول في الجلاء قصيدة جميلة في مخاطبة دمشق بلد الأحرار:

دمشقُ: أيا بلد الأحرار أي فتى
لم يمتشق فيك سيفاً أو يخضُّ نارا
عيد الجلاء أسميه وأعرفه
يوم تبارك أدناء وأسحارا

وفي سورية صور الشعراء السوريون فرحة الجلاء، ومن درر تلك القصائد ما قاله الشعراء الذين كانوا يملؤون الساحة الشعرية، ومن أزهى الأمثلة ما كان في قصائد عديدة لشعراء سورية في حينها، عمر أبو ريشة وشفيق جبري وبدر الدين الحامد وبدوي الجبل:

يغني عمر أبو ريشة الجلاء:

يا عروس المجد تيهي واسحبي
في مغانينا ذيول الشهب
درج البغي عليها حقبة
وهوى دون بلوغ الأرب
وقف التاريخ في محرابها
وقفة المرتجف المضطرب

وشاعر الشام كما وصفه معاصروه والنقاد شفيق جبري أطلق أجمل شعره في الجلاء في قصائد عديدة، نرددها ونستعيدها، لما فيها من معاني البطولة والصمود والتمجيد للإنسان والحرية والوطن، فقال في قصيدة متفردة:

حلم على جنبات الشام أم عيد؟
لا الهم همّ ولا التسهيد تسهيد
أتكذب العين والرايات خافقة
أم تكذب الأذن والدنيا أغاريد
يا فتية الشام للعلياء ثورتكم
وما يضيع مع العلياء مجهود
جدتم فسالت على الثورات أنفسكم
علمتم الناس في الثورات ما الجود
خلت ملوك وأرض الشام طاوية
تاج الملوك وتاج الشام معقود

وقال مرة أخرى مذكراً برحيل المستعمر:

قل للذين أذاقونا بليتهم
حتى نفضنا بلاء كان يؤذينا
ما كنتم غير حلم في نواظرنا
أدمى النواظر حيناً وانجلى حينا

أما الشاعر بدوي الجبل، صاحب القافية المتفردة والمعاني المبتكرة، فقد قال في الجلاء والحرية شعراً كثيراً، وفي قصيدته الجلاء رسم صورة متكاملة رابطاً بين الماضي والحاضر، وصور البطولة والاقتحام، استمد من التاريخ صوراً غاية في الجمالية والتوفيق، واستعار رمزية دمشق في التاريخ:

الزغاريد فقد جن الإباء
من صفات الله هذي الكبرياء
بنت مروان اصطفاها ربها
لا يشاء الله إلا ما تشاء
انتزعنا الملك من غاصبه
وكتبنا بالدم الغمر الجلاء
وسقانا كأسه مترعة
وسقيناه وفي الكأس امتلاء
واقتحمناه حديداً ولظىً
وجزيناه اعتداء باعتداء
هذه الأرض لفرسانكم
ولعقبانكم هذا الفضاء
ملك مروان لكم وحدكم
قد جلا الإيمانُ كلّ الشركاء
الغد الميمون في الدنيا لكم
فاقتحم يا جيش واخفق يا لواء

ويبقى عبد الجلاء بعد عقود وعلى الزمن، هو الدنيا وزهوتها، وهو الذكرى التي يجتمع عليها السوريون.

ويتذكرون أولئك الذين دفعوا الحياة للخلاص من المستعمر، والذين افتدوا أوطانهم بأرواحهم، فتجاوزوا أهواءهم وانتماءاتهم لغاية نبيلة هي الحرية وجلاء المستعمر، وحين نقف عنده في كل يوم فإنما نمجد الحرية والاستقلال، ونعلي قدر الدولة الوطنية التي يمكن أن تحقق لنا ما نصبو إليه مع الفجر الآتي.

المجاهد زهدي السلطان.. رافع علم الاستقلال فوق الجزيرة السورية

| الحسكة - دحام السلطان

خاض أهلنا في الجزيرة السورية كباقي أرض الوطن ملاحم بطولية ضد الاستعمار الفرنسي منذ وطئت قدمه الأرض وحتى جلاء آخر مستعمر، من خلال ظهور شيوخ ووجهاء القبائل والعشائر والقادة الوطنيون الذين سطروا على صفحات التاريخ بطولاتهم ومواقف العز والكرامة التي خاضوها في سبيل استقلال الوطن بشكل عام والجزيرة السورية بوجه خاص، رافضين ومقارعين كل أشكال القرارات التقسيمية الانفصالية الخبيثة التي كان المستعمر يعرضها ويسوّق لها ويدعو إليها.

دخول الفرنسيين الجزيرة

عام ١٩٤٥ قدم وفد الحكومة الوطنية إلى مدينة دير الزور وطلب المجاهد الوطني الملازم ثان الشيخ زهدي بك السلطان «١٨٩٩– ١٩٨٨» للحضور إلى دير الزور آنذاك، الذي يُعد واحداً من أهم المناضلين الوطنيين الأحرار الذين قارعوا الاحتلال الفرنسي على امتداد ساحة الجزيرة السورية منذ دخولهم إليها محتلين، للقاء وفد الحكومة الوطنية، فالسلطان واجه الفرنسيين عندما دخلوا الجزيرة السورية من الشرق عام١٩٢١ وحين تمّ إلقاء القبض على السلطان، ومن ثم اعتقاله وساقه الجنرالان «فيخان وديوت» مرفقاً إلى مدينة حلب، وبوصوله إلى حلب وضعه الفرنسيون تحت أمر الواقع وأفهموه بأنهم لم يأتوا إلى سورية محتلين؟ بل دخلوها تحت مظلة الشرعية الأممية، تحت بند فرض الحماية والانتداب استناداً إلى المادة رقم ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.

إعلان العصيان المدني

بعد أن استنكف السلطان عن الخدمة بالتوازي مع وجود الفرنسيين في الجزيرة أعلن العصيان العلني ضدهم، وتأسس على أثر ذلك الحزب الوطنيّ في الجزيرة كأول تيار فكري وسياسي يدعو إلى المقاومة وطلب الحرية والاستقلال والذي عُرف بداية باسم «جماعة القصمان الحديدية» النواةُ الأولى للحزب الوطني، الذي دعا إلى تأسيسها النائب الوطني «محمد نوري الفتيح» حين قدومه من دير الزور إلى الحسكة عام ١٩٣٣.

امتداد تاريخي وطني

يعتبر المجاهد السلطان، امتداداً وطنياً لتاريخ والده الشيخ الثائر الشهيد نائب الجزيرة العليا حماد بك السلطان الملحم «١٨٧٠– ١٩٣٣»، الذي أعطى أنموذجاً أصيلاً لأبناء الجزيرة السوريّة، في جميع المواقع التي تقلّدها بين عامي ١٨٩٨– ١٩١٩ بعد أن تخرّج في الكليّة العسكرية التي افتتحها السلطان العثمانيّ عبد الحميد الثاني لرؤساء القبائل والذوات في الآستانة بين عامي ١٨٩٣– ١٨٩٦، وهي الكلية نفسها التي تخرّج فيها معظم الأحرار الوطنيين من أمثال: وزير الحربية الشهيد يوسف العظمة، وفي نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد رحيل الأتراك عن البلاد، أصبح والده نائباً للجزيرة العليا في المجلس النيابي السوري، الذي دعا إليه مندوب المفوض السامي الفرنسي، حيث قام بتشكيل الاجتماع، وإجهاض آمال الفرنسيين، الحافل بالوطنية الذي دفع حياته خلال عمله في تلك المواقع والمهام التي تقلدها صوراً مشرقة جسد فيها الانتماء الوطني والقومي، فهو الذي رفض المغريات التي قدّمها له أدميرال الأسطول البريطاني في أثناء فترة حكمه في قضاء القطيف؛ لتسهيل مهمة احتلال الإنكليز لمنطقة الخليج العربي، وقيامه بفض النزاعات التي كانت تحصل بين القبائل العربيّة في نجد والحجاز، ومشاركته في الحملة العسكرية التي دعا إليها جميل بك المدفعي، للمشاركة بثورة رشيد عالي الكيلاني المعروفة «بثورة العشرين» ضد الاحتلال البريطاني في العراق، كما أسهم في تأليب القبائل والعشائر العربية والكرديّة ضد الاحتلال البريطاني في العراق، على الرغم من أنه قد تلقى يومها تهديداً مباشراً من حاكم الموصل السياسي الكولونيل البريطاني «تولدر» بالكتاب رقم ١١٢ / ٥ بتاريخ ١ تموز ١٩٢٠، والذي ينذره مضمونه بالضرب بشدة بواسطة الطائرات والبطش به إن داوم على تحريض القبائل ضدهم، أما في فترة الاحتلال الفرنسي للجزيرة وموقف الشيخ السلطان منها، فبعد أن دخلت القوات الفرنسية إلى الجزيرة السوريّة في العام ١٩٢١ بقيادة ضابط الاستخبارات الفرنسية المستشار «تريه»، تسارع الحراك الثوري ضده على كامل رقعة المحافظة ليكون على رأس الوطنيين الشرفاء من أبناء المحافظة، وفي الوقت نفسه كانت السلطات الفرنسية تخشى الاصطدام معه علناً، وللتاريخ الوطني الذي عُرف به في جميع الولايات العربيّة التي حكمها، ولاسيما في العراق والخليج العربي. وفي محاولة فصل الجزيرة والفرات عن سورية عام ١٩٢٧ التي أرادت بها فرنسا ضرب وحدة البلاد بفصل الجزيرة والفرات عن الوطن الأم سورية، دعت إلى اجتماع رؤساء القبائل والعشائر في الجزيرة ونواب عن دير الزور وعن الجزيرة في مدينة دير الزور، وفي أثناء الاجتماع طرح مفوّض المندوب السامي الفرنسي هذه الفكرة فلاقت معارضة شديدة من نائب الجزيرة العليا الشيخ الثائر المجاهد حماد بك السلطان الذي حضره مع نواب عن دير الزور والرقة وعدد من شيوخ القبائل والعشائر، في مدينة دير الزور عام ١٩٢٧، باعتباره النائب الأول والوحيد الممثل عن الجزيرة السورية في المجلس النيابي السوري، الذي دعا إليه مندوب المفوض السامي الفرنسي، حيث قام بتفشيل الاجتماع، وإجهاض هذه المؤامرة الدنيئة، وخاطب قائد الجيش البريطاني وأبعاد كل الوطنيين الشرفاء، وفي الوقت نفسه اتخذت قراراً بتصفيته، وخططت لذلك بذكاء غادر، وبعد فترة الإقامة الجبرية التي فُرضت بحقه، لم تخمد جذوة النضال في صدره، بل زادته تصميماً على حرية الوطن، قبل أن يأتي العام ١٩٣٣ حين تعرّض المجاهد حماد بك لوعكة صحية الزمته الفراش، وهنا وجدت السلطات الفرنسية الفرصة سانحة للتخلص منه فقامت بإرسال طبيب الجيش الفرنسي للتخلّص منه، فقام الطبيب بحقنه بإبرة سامة قاتلة.

> السلطان: والدي دفع حياته ثمناً لرفضه فصل الجزيرة السورية عن الوطن الأم

تحرير الجيش الوطني للجزيرة

حين حضور المجاهد زهدي بك إلى مدينة دير الزور قال له وفد الحكومة الوطنية بالحرف هذا يومك! وتطلب منك تأمين الحسكة وتطبيق النظام فيها لتحقيق الجلاء واستكمال إنجازه وتحقيقه في باقي مناطق البلاد.. علمَ أهل الحسكة بقدوم قوة وطنية إليهم، وكان بدوره يتواصل مع وفد الحكومة بدير الزور ويعلمهم بكل تحركاته، ولدى دخوله المدينة من الجهة الجنوبية كان هناك «ميليشيا فرنسية» مرابطة عند «جسر حي غويران الحالي» فلما رآه أفرادها على رأس القوة العسكرية، لاذوا بالفرار وتحصنوا مع بقية أفراد الجيش الفرنسي الموجودين بالحسكة، في مقر القشلة «الثكنة العسكرية القديمة المحاذية لموقع سوق الهال اليوم من الجهة الشرقية»، فعندها دخل وقواته دار السرايا «مبنى المحافظة الحالي» وقام بإنزال العلم الفرنسي ورفع العلم السوري على ظهر دارها، وقام بإطلاق سراح جميع المعتقلين لدى سلطات الاحتلال الفرنسي فيها، وأبرق إلى وفد الحكومة الوطنية الموجود في دير الزور ليعلمهم بكل ما حصل معه، والذي لم يتوان عن الحضور إلى الحسكة للاحتفال مع أهلها بفرحة جلاء الاحتلال الفرنسي وسط مهرجان احتفالي كبير تم في ساحة مبنى المحافظة، وأثناء مراسم الاحتفال بالجلاء، دخل الحسكة اللواء الثامن للجيش البريطاني بكامل عتاده وبأسلحته ومصفحاته المدرعة ودباباته، وخاطب قائد الجيش البريطاني أعضاء الحكومة قائلاً: لقد دخلنا سورية من أربعة محاور وأصبحنا المسؤولين عن الأمن في البلاد اليوم.. «وجاء ذلك بعد انتصار الحلفاء بقيادة بريطانيا على دول المحور في الحرب العالمية الثانية»، وطلب من أعضاء الحكومة تسمية مسؤول عسكري وأمني وقائد لحرس القبائل والعشائر من قبلهم بشكل فوري، لكي تكون علاقته مع «الميجر» البريطاني، فقال له أعضاء الحكومة لقد قمنا بتسمية الملازم ثان «زهدي بك السلطان» وانتدبناه لهذه المهمة، فعندها سُمّيَ قائداً عسكرياً عاماً للجزيرة السورية ومسؤولاً أمنياً فيها، وقام بتأسيس دائرة إدارة تنظيم شؤون العشائر، والتي كانت تتكون من سبعة عناصر وقام بتسليحهم من أسلحة الدرك السوري ثم قام بتطويع ٦٥ فرداً من أبناء أهالي وقبائل وعشائر الحسكة، في الوقت الذي كان فيه هذا الرقم هو السقف العددي الأعلى المسموح به في التطويع آنذاك.

تحقق النصر بجلاء الفرنسيين

تعرّض مقر دار السرايا لطلق ناري جاء من المقر الفرنسي الذي كان قد حذّر منه زهدي! وطلب أثناءها من الميجر البريطاني إخلاءه، فقام بإبلاغ الإنجليز فوراً بهذا الخرق الاستفزازي المتعمّد، فقام الميجر البريطاني بإرسال لجنة مختصة من قبلهم لتحديد موقع الطلقة ومصدر اتجاهها، فتأكد الميجر البريطاني من قبل من أرسله بأن مصدر الطلقة هو الموقع الفرنسي ذاته المجاور لدار السرايا! وعلى أثر هذه الحادثة تم إخلاء الموقع من القوة الفرنسية، وفي الوقت ذاته لم يتوان السلطان من توجيه إنذار نهائي للفرنسيين الموجودين في الثكنة يتضمن منع التجوال والنزول لأي عسكري فرنسي إلى مركز مدينة الحسكة وكل مخالفة وخرق للتعليمات يستوجب المسؤولية ولا ضمان لحياة أي فرنسي يخالف التعليمات، كما قامت القوات البريطانية بتوجيه إنذار نهائي أيضاً للقوات الفرنسية دعت فيه إلى مغادرتها أرض الجزيرة السورية، وبالفعل هذا ما حصل فقد خرج الفرنسيون عن بلادنا بحماية الإنكليز، وأثناء انسحابهم أرادوا تدمير الجسور وبعض المواقع الحيوية في المدينة، لكن السلطان فوّت عليهم هذه الفرصة، بعد أن تدارك الوضع مسبقاً وقام بتوزيع قوات عشائرية من الجيش والدرك والمتطوعين الوطنيين ومن أبناء القبائل والعشائر في المنطقة ووضعهم في حماية المدينة وممتلكاتها، كما طلب من جميع أبناء المدينة الالتحاق بالقوة العسكرية الوطنية واتخاذ أعلى درجات الجاهزية في التأهب لحالة الطوارئ وحماية المدينة وممتلكاتها من المحتلين المنحدرين الذين ولّوا عن أرض الوطن إلى غير رجعة فكان النصر وكان الجلاء.